

أدب المعتزلة

إلى نهاية القرن الرابع الهجري

تأليف الدكتور عبد الحليم بابع

سجما

والمؤلف يتقدم الى بحثه مزودا بماض جاد في دراسة شخصية بارزة من شخصيات المعتزلة تلك هي : الجاحظ ، وقد أمكنه أن يستشف من بين ملامح هذه الشخصية سمات ذلك الدور الخطير الذي لعبته في تطوير النثر الفني ، « وقد كان هذا دافعا الى متابعة دراسة هذا الموضوع في نطاقه الواسع » ويعني المؤلف بذلك كتابه الذي بين أيدينا ، والذي قسمه من حيث المنهج الى : تمهيد ثم بابين رئيسيين ثم خاتمة .

ففي التمهيد تحدث عن نشأة الفرق الإسلامية وبيئاتها وأهم المبادئ التي قامت عليها ، محاولا أن يستقصى من بين طوفان الروايات المصعب الحقيقي في تكوين كل منها : كل هذا ليصل الى اجابة شافية لذلك التساؤل : ما هو الاثر المباشر وغير المباشر لظهور الاحزاب الاسلامية - كظاهرة مستحدثة في الحياة السياسية - في الادب العربي : رفدا بموارد جديدة ، وانضاجا لأصيله ، وتوجيها له بصفة عامة .

اما الباب الاول : فقد قسمه المؤلف الى فصلين متميزين ، في الفصل الاول حديث عن التيارات الثقافية التي غمرت البيئة العربية ابتداء من القرن الثاني الهجري ، وتتبع للمنابع الحقيقية لعقيدة المعتزلة ، وتفسير لما تميزت به من خصائص فكرية وثقافية ، وفي سبيل هذا يناقش المؤلف الميراث الثقافي والاجتماعي للبلاد المفتوحة ، في ظل الاسلام ، والوالي ومكانتهم في التكوين السياسي للدولة المسلمة في عهدي بني أمية وبني العباس ثم حركات الترجمة من الفارسية والهندية واليونانية واثار ذلك كله في الفكر الاسلامي .

ولعل المؤلف أحس بما قد يبدو من بعدد بين محتويات هذا الفصل وجوهر البحث فبرر هذا بقوله « اذا كانت عقلية المعتزلة قد اصطبغت بصفة ثقافية خاصة يتمثل فيها مزيج مختلف من التيارات الثقافية والفكرية فانه لا بد من معرفة هذه التيارات وأجناسها وما هو الدور الذي أسهمت به في بناء هذه العقلية » .

وفي الفصل الثاني من الباب الاول تتبع المؤلف خطوات المعتزلة نشأة وامتدادا ، وناقش جملة من الروايات عن البداية التاريخية لمذهبهم ومدى ارتباطهم بمن عداهم من الفرق ، والعناصر الأساسية لمذهبهم وعلاقتها بالتيارات الدينية التي غزت البيئة العربية من مسيحية ويهودية ، وقد استطاع المؤلف أن يرجع بعض هذه العناصر الى مصادرها من غنوصية واشراقية وغيرها .

كان رصد الظواهر الأدبية وتفسيرها وتقويمها أكثر احتياجا الى حيدة الكاتب وتجرده من رصد الظواهر الأدبية وتفسيرها ، لما للمادة من قوة ذاتية تفرض على من يسجلها نوعية التفسير الذي يقدمه لها .

وفي الادب تزداد امكانية التأثير بالظروف المكانية والزمانية التي يروح تحتها من يؤرخ لظاهرة او شخصية أدبية ، ومهما حاول التجرد فان طابع العصر لا بد وأن يلون نظره ، ومن هنا تبرز الضرورة الفنية الى اعادة عرض ترائنا عرضا موضوعيا وتقويمه من جديد تقويما لا يغفل بيئة العمل الادبي وملابساته بقدر ما يحقق - كذلك - ايجابية النقد الحديث في النظر اليه بأسلوب جديد .

اي أنه لا بد لرصد ترائنا الادبي من خطوتين بدءا : أولا : عرض الظاهرة في بيئتها ، وثانيا : عرضها بأسلوبنا وعلى ضوء ما وصل اليه النقد العالمي ، وبذلك لا نتجنى على الظاهرة موضوع البحث كما لا نبخس قيمنا الحديثة حقها في الممارسة والتطبيق .

اقول هذا لما نسمعه احيانا من دعاوى يحمل كبرها بعض من يزعمون الحرص على القديم حينما يصفون عليه فلسفية تجاهه عن أن تناله اقلام الدراسين بالنقد والتقويم مرددين : أن لكل عصر تقاليده الأدبية واننا يجب أن لا نتناول عملا فنيا الا على ضوء ما رسخ في بيئته من قيم ، ورغم صحة هذا الزعم في شطر منه فان هناك مغالطة ظاهرة في شطره الآخر ، إذ أن رعاية المنتمى الزماني والمكاني للعمل الادبي لا يحتم اغفال المقاييس الحديثة في نظرنا الى التراث حتى نميز غثه من سمينه وننفى عنه تلك الظواهر الأدبية المريضة التي ترعرعت في أحضان قصور الخلفاء والملوك : حرصا على نهضتنا الوليدة وتغذية لثقافتنا بكل ما هو طيب من قديمنا .

جزء من هذه الغاية هو ما هدف اليه الدكتور عبد الحكيم بابع من كتابه « أدب المعتزلة » ، لما للمعتزلة من مكانة ملحوظة في تاريخ الحركات العقلية في الاسلام وما كان لهم من أثر عميق في دعم الفكر الاسلامي بتيارات ثقافية جديدة و « لنرى الى أي حد كان لاتجاهاتهم المذهبية انعكاسات على أعمالهم الأدبية » على حد تعبير المؤلف في مقدمة كتابه .

نماذج لم تكن - من حيث الجودة - في ذلك المستوى الذى اطلنا عليه المؤلف فى نثرهم ، كما عرض للمدح المعتزلى وانتهى الى تقرير ضحالة ما وصل اليها منه ، غير انه تحدث - بكثير من الإعجاب - عن فخر المعتزلة وما تخلله من حماس دينى ووهج عقائدى .

ونحن نعتقد أن المؤلف الفاضل قد كبد نفسه مشقة - آية مشقة - فى محاولة اقامة بناء شعري ضخم منسوب الى المعتزلة : لقد كان يكفيهم من جهده ان وقفنا على هذا النهج الجدلى الذى استحدثوه - غير ان صلة المودة التى يعقدها كل باحث مع موضوعه قد اجتذبت المؤلف الى دائرتها فاذا به يستحسن نماذج لا اظنه كان يستحسنها لولا اعجابه اساسا بابداع العقلية المعتزلة : وصل به هذا الإعجاب حد ان علق على بضعة آيات لفظية « للنظام » ص ٣٣٤ بانها « رائعة » وطل لهذه الروعة بان الشاعر ينتزع تلك الآيات من اعماق بعيدة فى تصوره ، وانه بلغ فيها من الاغراب ابعد حد ممكن والصورة الشعرية تعتمد اساسا على الاغراب فى الخيال !!

وفى ص ٣٣٨ يشير الى ان للنظام آياتا رقيقة فى الغزل ينهب فيها مذهبه فى الاغراب منها .

ذكرتلك والراح فى راحتي
فثبت السدوم بدمع غزير
فان ينفد فرط الاسى
بكتك الحشا بدموع الضمير

فتصور ... آية رقة !!! هذا مع ان المؤلف نفسه قد اشار فى مقدمة هذا الفصل الى تعاليل سديد لسطحية ما نسب الى المعتزلة من شعر مفسرا ذلك بان طبيعة مهمة المعتزلة وتكوينهم الثقافى لم تكن لتتيح لهم التفوق الفنى فى الشعر كما اتاحت لهم ذلك فى النثر ، فالجاحظ - مثلا - يتربع - فى نثره - على القمة ولكنه فى الشعر يهوى الى معان سطحية لا تتكافأ مع عمق ثقافته وخصوبة فكره ويستشهد المؤلف على هذا بابيات « للجاحظ » ينظر فيها نظر الخبير وينقدنا نقدا موضوعيا يطلنا على ذلك الخواء الفنى الذى كان يعانى به الشعر المعتزلى .

● هنا وملتقى بالخاتمة التى يلخص فيها الكاتب بحثه منتهاها الى بضع نتائج عامة منها : ان مذهب الاعتزال تأثر فى اصوله بعناصر لاهوت مسيحية ويهودية وانهم كانوا اول دعاة فى الاسلام الى منهج النظر العقلى كما أنهم كانوا اول من وضع الاسس لكثير من العلوم العربية وفى مقدمتها البلاغة ، وانهم طوروا النثر تطورا ضخما وان شعريتهم لم يرتفع - كثرة واجادة - الى مستوى نثرهم .

ومن خلال هذا التحليل يبدو ان المؤلف قد اختار لكتابه - من حيث الطريقة - المنهج التاريخى فى الدراسة الادبية والذى يقوم على اساس من تتبع النتائج الادبية على مدار الزمنى ، وهو منهج كتب به كثيرون ولكنه لا يبدو ان يكون فصلا واحدا من علم مناهج البحث الحديث ، فهناك غيره : المنهج النفسى ويعتمد على دراسة الادب من خلال نفسيات

كما تحدث فى هذا الفصل نفسه عن الحرية العقلية فى الاعتزال ومكانتها فى الفكر الإسلامى واثرها فى خلق روح جديدة لاممت بين الثقافة الاسلامية والثقافة الاجنبية وذاقت عن الاسلام بسلاح خصومه ، ووضعت العقل فى مكانه الصحيح من الشريعة وقومت كثيرا من الانحرافات التى لحقت ببقاء الديانة . وملتقى قارئ الكتاب باهم عناصره متمثلا فى الفصل الاول من الباب الثانى : حين ناقش المؤلف نثر المعتزلة مقيما من بين انقاض الكتب الكثيرة التى وضعها المعتزلة واضاعها الزمن : ملامح منهج معتزلى جديد فى اسلوب الكتابة .

وقد ابرز المؤلف خصائص هذا الاسلوب فى حديثه عن (الجدل) عند المعتزلة واضعا اصابعه على طريقة فى النثر العربى لم تعرف قبل المعتزلة وانما كانت اثرا مباشرا لهذا اللقاح المنطقى والفلسفى الذى عرفته العقلية العربية فى العصر العباسى .

وقد اعتمد هذا الاسلوب - كما قرر المؤلف - على طريقة التقديم والاستنتاج : يقدم المعتزلى عدة مسلمات ثم يصل منها الى نتيجة لا يتوقعها خصمه ولا يمكنه تكذيبها .

وبالاضافة الى هذه الطريقة - الجديدة لحينها على النثر العربى - لم يغفل المؤلف الشكل الادبى فى نثر المعتزلة وذلك السيل التعبيرى من المصطلحات الفلسفية والمذهبية الذى عرف طريقه البنا على يد المعتزلة .

وقد فطن المؤلف الى اهمية هذه الظاهرة الاسلامية - ظاهرة الجدل - فاشار فى مقدمة الفصل ص ١٨٠ الى ان « خصائص الادب المعتزلى التى يمكن ان تكون سمة له وحده والتى هي بلا شك صدى مباشر لثقافتهم يبحث عنها فى ابرز لون ادبى نراه عندهم وهو المحاوره والجدل » . وقد التمس نموذجا تطبيقيا لهذه الظاهرة فوجده فى علم من اعلام المعتزلة : هو ابو اسحاق النظام الذى يعد نموذجا للعقلية المسلمة فى ذروة تفتحها وطواعيتها للنمو والتأثر برواد الثقافات المختلفة ، ويقدّر ما كانت محاولة المؤلف هذه موفقة كانت مبالفته فى التماس خصائص ادبية متميزة من خطب المعتزلة ومواعظهم ، ويبدو ان ضياع كثير من انتاج المعتزلة فى هذين الميدانين جعل المؤلف يدور بين نصوص ملساء لا تتميز فيها طابعا خاصا باصحابها ، مما حدا به الى التفتيق عليها بما لا يفيد استحسانا ادبيا وان افاد اعجابا بما فيها من عاطفة وحماس دينى ، وشئنا بين الحماس الدينى المجرد والتميز الادبى بما له من خصائص وانطباعات لابد من توافرها اساسا .

ويعود الموضوع - بين يدي المؤلف - الى اشرافه حينما يتحدث فى الفصل عينه عن موضوعات جديدة دخلت على ايدى المعتزلة الى ميدان الكتابة العربية ، فقد عالج المعتزلة - بكثير من الطرافة والتوهج - موضوعات مثل : الحكمة فى تخالف النزعات واليول ، علاقة الذكاء بالجنس وغير ذلك مما كان لحيثه غريبا على عقول العرب واقلامهم .

● اما الفصل الاخير فقد خصصه المؤلف لدراسة شعر المعتزلة فعرض اولا لدراسة الغزل عندهم مستعرضا بفسحة

فانا - مثلا - لا اعتقد بان ابا المصطفى في زهدياته كان يرتكز على اسس علمية وفلسفية ص ٨٥ ، بل لا اعتقد انه كان زاهدا على الاطلاق - بل اومن انه كان يركز تحت ثقل نفسى يفرض عليه ما يسمى في علم النفس « بالعرض » او الاستعراض الذى قد يكون فنيا كما يكون ماديا .

كذلك اعتقد ان المعتزلة لم يكونوا هم مؤسسى علم الجمال العربى او البلاغة العربية ص ٢٢٠ . . اعتقد من قبل (الجاحظ) كان هناك ابو عبيدة ، فى « مجاز القرآن » وكان هناك ابن قتيبة ، فى « تاويل مشكل القرآن » . وغيرهما .

ويبدو ان روح العصر هى التى حدث بالمؤلف الى تحميل بعض المصطلحات فوق طاقتها ، فاصطلاحات كالشكل والمضمون وغيرهما من مستحدثات النقد المعاصر لا ينبغى اطلاقها مثلا على ما كان يدعو القدماء ، باللفظ والمعنى ص ١٩٧ ، ص ٢١٦ .

واخيرا : لا يفوتنى ان اشير صراحة - وان كنت قد المحت الى ذلك فى غضون التحليل - الى توفيق المؤلف فى ارتداد عنرية هذه الناحية من تراثنا واستشماره لحقبة من اكثر عصورنا الادبية تفتحنا وجيشانا وخصوبة كما لا انسى المامه الدقيق بمسارب الثقافات الاجنبية الى قيمنا ، وانا اعتبر الفصل الاول - الذى خصصه لهذا الهدف - اعتبره فى حد ذاته وثيقة فكرية تكشف عمق وامتلاء تراثنا القديم .

وان قارئ الكتاب ليخرج منه وقد حفرت فى باطنه صورة فنية رسمها المؤلف لشخصية من اجل شخصيات المعتزلة تائيرا وتأثرا تلك هى شخصية النظام - اقرا الفصل الاول من الباب الثانى - كما ان اشارة المؤلف الى ظاهرة الوصف الحسى وتغير مفهومه على يد المعتزلة . . اشارة كهذه فى منتهى اللامحبة ، وان كانت عابرة .

تهنئة لبراعة المؤلف التى التقطت موضوعها بشفاافية الاديب ودقة العالم ، وتحية الى الجهد ايا كان ماناه . . تحية .

فتوح احمد

رجالها ، وهناك المنهج الجنسى : ونعنى به دراسة الأدب على اساس الجنس كما ان هناك النظرية الاقليمية فى دراسة الأدب ، ونظرية دراسة الفنون الادبية وعديد من مناهج البحث الحديثة فى الأدب ، ويستقطب مزاياها جميعها : منهج دراسة الأدب كظاهرة ، اذ يستفيد هذا المنهج من دراسة البيئة والثقافة والجنس والفن الادبى مجتمعة .

ورغم توفيق المؤلف فى المزاوجة بين دراسة ادب المعتزلة كتاريخ وكمدسة ادبية : رغم هذا فقد أدت به حدود دراسته الى استعراض بعض المشاكل التى كانت تبدو بعيدة عن جوهر الدراسة بعض البعد ، وفى فصل كامل يتحدث المؤلف عن بيئة البلاد التى فتحها المسلمون وما كان يضطرب بها من ثقافات ولا ينسى ان يعرض فيه ايضا لظاهرة الزندقة . . كل هذا ليقرب ان المعتزلة فى ثقافتهم كانوا نتاج تيارات فكرية مختلفة .

وملاحظة اخرى عبثها يقع على التحديد الذى رسمه المؤلف لدراسته ، ذلك ان اسلوب التنوع فرض عليه ايراد حشد من الروايات او الآراء فى بعض مراحل البحث لكى يستصوب احداها او احدها دون ان يترتب على اختلافها تفاوت فى نتائج البحث ، ومن نماذج هذا تحقيقه لمبدأ تاريخ الشيعة ص ٢١ ، وتحقيقه لمفهوم المصطلح ذاته ص ٢٥ .

ورغم اننا فى الدرس الادبى نتجه اساسا الى الخصائص الفنية للعمل الادبى ولا نعنى بالموضوع الا فى حدود ما يكون سمة من سماته . . رغم هذا فقد دل تقسيم المؤلف لادب المعتزلة على اساس اغراضه . . دل على انه يضع الموضوع فى المقام الاول ، فهو يدرس خطبهم على حدة ثم مواضعهم وجدلهم ، وفى الشعر يدرس الغزل ثم المدح ثم الفخر وهكذا ، مع ان مؤلفنا الفاضل اول من يعلم مقدار التفرير الذى يتعرض له الباحث حينما يعتمد فى درسه على مثل هذا التقسيم .

ونحن نعلم ان النقد العالمى يهدف الى جعل المقياس الادبى من حيث ذاتيته واتفاق الكلمة عليه كالمقياس العلمى او يقرب منه الا اننا نؤمن - حتى يتحقق هذا - بنسبية ذلك المقياس ،